

على هامش النص :

التناسق الفني

في تصوير القرآن

للأستاذ سيد قطب

—>>><<<—

قلنا : إن القرآن يرسم سوراً ويعرض مشاهد^(١) ، فينبغي أن نقول : إن هذه المشاهد وتلك الصور ، يتوافر لها أدق مظاهر التناسق الفني في ماء الصورة ، وجو المشهد ، وتقسيم الأجزاء ، وتوزيعها في الرقعة المعروضة .

والذي ننبه هو :

أولاً : ما يسمى « بوحدة الرسم » . وحتى المبتدئون في القواعد يعرفون شيئاً عن هذه الوحدة ، فلنا في حاجة إلى شرحها . ويمكن أن نقول إن القواعد الأولية للرسم تحتم أن تكون هناك وحدة بين أجزاء الصورة ، فلا تتناثر جزئياتها .

وثانياً : توزيع أجزاء الصورة — بدتناسبها — على الرقعة بنسب معينة حتى لا يزحم بعضها بعضاً ، ولا تفقد تناسقها في مجموعها .

وثالثاً : اللون الذي ترسم به ، والتدرج في الظلال ، بما يحقق الجو العام للتسق مع الفكرة والموضوع .

والتصوير بالألوان يلاحظ هذا الانسجام ، ويقع شيء منه في بعض المشاهد المسرحية والسينائية المبدعة . والتصوير في القرآن يلاحظ هذا كله ، وإن كانت وسيلته الوحيدة هي الألفاظ . وبذلك يسمو الإعجاز فيه على تلك المحاولات .

١ — خذ سورة من السور الصغيرة التي ربما يحسب البعض أنها شبيهة بسجع الكهان أو حكمة السجاع . خذ - سورة « الفلق » .

فالجو المراد إطلاقه : ١ ، إنه جو التمجيد ، بما فيه من خفاء وهينة وغموض وإيهام ، فاسمع :

(١) يراجع عدد المبرة من الرسالة هذا العام .

« قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . من شرِّ ما خَلَقَ . ومن شرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . ومن شرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . ومن شرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ . »

فما الفلق الذي يستعبد بربه ؟ نختار من معانيه الكثيرة معنى الفجر ؛ لأنه أنسب في الاستعاذة به من ظلام ما سيأتي : مما خلق ومن الناسق ، ومن النفاثات ، ومن الحاسد ، ولأن فيه إيهاماً خاصاً سنعلم حكمته بعد قليل .

يعوذ رب الفجر « من شرِّ ما خلق » هكذا بالتكثير وبما الموصولة الشاملة . وفي هذا التكثير والشمول يتحقق الغموض والظلام المعنوي في العموم . « ومن شرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ » الليل حين يدخل ظلامه إلى كل شيء ، ويعمى مرهوباً مخوفاً . « ومن شرِّ النفاثات في العقد » وجو النفث في العقد من الساحرات والكواهن كله رهبة وخفاء وظلام ، بل هن لا ينفن غالباً إلا في الظلام . « ومن شرِّ حاسدٍ إِذَا حَسَدَ » والجسد أنفعال باطنى مطمور في ظلام النفس ، غامض مرهوب كذلك .

الجو كله ظلام ورهبة ، وخفاء وغموض وهو يستعبد من هذا الظلام بالله ، والله رب كل شيء . فلم خصمه هنا « رب الفلق » ؟ . . . لينسجم مع جو الصورة كلها ، ويشارك فيه . ولقد كان المتبادر إلى الذهن أن يعوذ من الظلام رب النور ، ولكن النهن هنا ليس المحكم ، إنما المحكم هنا هو حاسة التصوير الدقيقة ، فالنور يكشف الغموض المرهوب ، ولا يتسق مع جو النسق والنفث في العقد ، ولا مع جو الحسد . . . و « الفلق » يؤدي معنى النور من الوجهة الذهنية ثم يتسق مع الجو العام من الوجهة التصويرية ، وهو مرحلة قبل سطوع النور بجمع بين النور والظلمة ، ولها جوها الغامض السحور .

ثم ما هي أجزاء الصورة هنا أو محتويات المشهد ؟

هي من ناحية : « الفلق ، والناسق » مشهذان من مشاهد الطبيعة . ومن ناحية « النفاثات في العقد ، وحاسد إذا حسد » مخلوقان آديان .

وهي من ناحية : « الفلق » و « الناسق » مشهذان متقابلان في الزمان . ومن ناحية : « النفاثات » و « الحاسد » جنسان متقابلان في الإنسان .

فما يتسق معه تصوير الأرض بأنها « خاشعة » فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت .

ثم لا يزيد على الاعتزاز والإرباء هنا ، الإنبات والإخراج كما زاد هناك ، لأنه لا محل لها في جو العباداة والسجود . ولم نجى ، « اهتزت وربت » هنا للفرض الذي جاءنا من أجله هناك . إنها هنا تحية لأن حركة للأرض بعد خشوعها ، وهذه الحركة هي المقصودة هنا ، لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العباداة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة . فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم ، ولكي لا يبق جزء من أجزاء المشهد ساكنا وكل الأجزاء تتحرك من حوله . وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة الشخيلة ، يسمو على كل تقدير .

ويمكن أن نلاحظ أن الممود والخشوع يتحدان في المعنى العام ، ويستدل بهما في الآيتين على قدرة الخالق على البعث ، فما هما إلا سكون أو خلود ، تعقبه الحركة والحياة ، فلو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني ، لما كانت هناك ضرورة لهذا التنويع . ولكن التعبير القرآني لا يري إلى مجرد أداء المعنى الذهني ، إنما يريد الصورة كذلك ، والصورة تقتضي هذا التنويع ، ليم التناسق مع الأجزاء الأخرى في اللوحة ، أو في المشهد المعروض ودلالة هذا التنويع حاسمة في أن « التصوير » مقصود قصدا في أسلوب القرآن ؛ وأن التعبير لا يقصد إلى أداء المعنى الذهني مجردا ، إنما يعمد إلى رسم صور للمعاني ، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة حسب اختلاف الأجزاء والألوان

ثم لننظر الآن إلى « وحدة الرسم » في كل من الصورتين ، وفي أجزاء الصورة كذلك .

وحدة الصورة الأولى هي : مخلوقات حية تخرج من الموت أو مشاهد حياة ، والأجزاء هي : نقطة تدرج في مراحلها المعروفة ونبته تصير زوجا بهيجا . وهي تراب ميت تخرج منه هذه النطفة ، وأرض هامة تخرج منها هذه النبتة . والجو العام هو جو الإحياء المرتسم من هذه الأجزاء

ووحدة الصورة الثانية هي : مخلوقات طبيعية عابدة ، أو مشاهد طبيعية . والأجزاء هي : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والأرض

وهذه الأجزاء موزعة على الرقعة توزيعاً متناسقاً . متقابلة في اللوحة ذلك التقابل الدقيق . وكلها ذات لون واحد ، فعي أشياء غامضة مرهوبة ، يلفها الغموض والظلام . والجو العام قائم على أسس هذه الوحدة في الأجزاء والألوان .

ليس في هذا البيان شيء من التحمل ، وليست هذه الدقة كلها بلا هدف . وليس هذا الهدف حلية عابرة . فالسؤال ليست مسألة ألقاظ أو تقابلات ذهنية . إنما هي مسألة لوحة وجو وتنسيق وتقابلات تصويرية تمد فنّاً رفيعاً في التصوير ، يلفت النظر إذا أدها مجرد التعبير .

٢ - عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر ، وقبل فتحها بالنبات ، مرة بأنها « هامة » ومرة بأنها « خاشعة » وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع في التعبير . فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان :

لقد وردتا في سياقين مختلفين على هذا النحو :

(أ) وردت « هامة » في هذا السياق « بأنها الناس : إن كنتم في ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ؛ لنبين لكم ، ونفرض في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يردُّ إلى أرض الممر ، لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبئت من كل زوج بهيج » .

(ب) ووردت « خاشعة » في هذا السياق : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن ، إن كنتم إياه تعبدون ، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » وعند التأمل السريع في هذين السياقين ، يتبين وجه التناسق في « هامة » و « خاشعة » . إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج ؛ فما يتسق معه تصوير الأرض بأنها « هامة » ثم تهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج .

وإن الجو في السياق الثاني هو جو عباداة وخشوع وسجود ،

تستخف يوم الظن ، والأصواف والأوبار والأشعار التي تتخذ أردية وأثاءاً .

(ب) والسياق الثاني يرسم صورة أو مشهداً لاستخراج الأثرية : السكر الذي يستخرج من البار ، والعسل الذي يخرج من النحل . ولأن هذه هي « وحدة الصورة » عرض من الأنعام الجانب الذي يناسب الأثرية . عرض اللبن السائغ للشاربين .

ولم تقف دقة التنسيق عند وحدة النظر العامة ، بل تمتد إلى دقائق الجزئيات : فهذا السكر يستخلص من الثمرات المخالفة في هيئتها وطبيعتها للعسل ، وهذا اللبن يستخرج من بين قرث^(١) ودم المخالفين في هيئتهما وطبيعتهما للبن ؛ فهي كلها تستحيل من أشياء أخرى . ثم النظر كله منظر زراعي حيواني .

ألا إنه الإبداع هنا في دقة التصوير ، وفي تناسق الإخراج . ومثل هذه اللسات الدقيقة التي تستوعب دقائق الجزئيات كثير في القرآن ، نكتي منه بهذه الأمثلة ، ونضيف إليها المثال التالي لئلا من دلالة خاصة !

٤ - « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

فالصورة صورة مبايعة بالأيدي ، ولتنسيق الجو كله ، جعل « يد الله فوق أيديهم » واستخدم هذا التجسيم في موضع التجريد المطلق ، والتنزيه الخالص .

وعلماء البلاغة يسمون مثل هذا : « مراعاة النظر » ويعتون منه الجانب اللفظي ، لأنهم لم يحاولوا أن يلحظوا جانب التصوير ، ونحن نأخذ تعبيرهم نفسه « مراعاة النظر » ونعني به جانب التناسق الفني في الصورة ، للمحافظة على « وحدة الرسم » وعلى جوال المشهد وعلى الانسجام العام .

ولكن القرآن لا يستخدم في التصوير هذه « اللسات الدقيقة » وحدها ؛ إنما يستخدم كذلك « اللسات العريضة » (ونحن نعبّر بلغة التصوير لأننا في الواقع أمام تصوير قبل التعبير) هذه اللسات العريضة قد تجمع بين السماء والأرض في نظام ، وبين مشاهد الطبيعة ومشاهد الحياة في سياق . حيث تتسع رقعة

(١) الغذاء الهضم في الأمعاء .

خاشعة لله . تخرج فيها وتتصل بها جماعتان من الأحياء مختلفتا النوع متحدتا المظهر : جماعة من الناس تستكبر على العبادة ، وجماعة من الملائكة تعبد بالليل والنهار . والجو العام هو جو العبادة المرتسم من هذه الأجزاء .

وهكذا تتناسق الجزئيات مع الجو العام ، وتتحد جزئيات الصورة الواحدة تحقيقاً لوحدة الرسم وتوزع الأجزاء في الرقعة بهذا النظام المجيب .

٣ - عرض القرآن في مواضع مختلفة كثيراً من صور النعمة التي أفاضها الله على الإنسان ، وفي كل موضع كان يمرض مجموعة من النعم ، متسقة « الوحدة » على هذا النحو الذي نعرضه في موضعين للتمثيل :

(١) « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » .

« والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكنافاً ، وجعل لكم سراويل تقيكم الحرّ وسراويل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »

(ب) « وإن لكم في الأنعام لعبرة نسيتكم مما في بطونها - من بين قرث ودم - لبناً خالفاً سائناً للشاربين .

« ومن ثمرات النخيل والأعناب ، تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

« وأوحى ربك إلى النحل : أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يمرشون ، ثم كلّى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون »

يلاحظ في هذين السياقين أن الأنعام مذكورة فيهما على السواء ، فلننظر من أي الجوانب عرضت في كل سياق ، ولماذا عرض هذا الجانب هنا ، وذلك الجانب هناك .

(١) السياق الأول يرسم صورة أو مشهداً للبيوت ، والأكنان والظلال ، والسراويل ، وكلها مما يلاذ به ، أو يستتر ، أو يستظل أو يحتسى . ولأن هذا هو « وحدة الرسم » عرض من « الأنعام » الجانب الذي يتفق مع هذه الوحدة . عرض الجلود التي تتخذ بيوتاً

فهذه رقعة فيحة في الزمان والمكان ، وفي الحاضر الواقع ،
والستقبل المنظور ، والغيب المحقق ، وفي خواطر النفس ووثبات
الخيال ، ما بين الساعة البعيدة المدى ، والنيت البعيد المصدر ،
وما في الأرحام الخافي بلفظه وحقيقته عن البيان ، والرزق في
الغد وهو قريب في الزمان مغيب في المجهول ، وموضع الدفن
وهو بعيد في الزمن .

إنها رقعة فيحة الآماد والأرجاء ، ولكن اللغات
العريضة بمد أن تتناولها من أقطارها ، تدق في أطرافها ، وتجمع
هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول ، وتقف بها جميعاً
أمام كوة صغيرة مغلقة ، لو افتتح منها سم الخياط لاستوى
القريب خلفها بالبعد ولا تكشف القاصي منها والدان .

ذلك أفق واحد من آفاق التناهي في تصوير القرآن
ووراء آفاق أخرى وآفاق !

سير قطب

الصورة لهذا كله على أساس من « الوحدة الكبيرة » بدل
« الوحدة الصغيرة »

١ - من ذلك : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ،
وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض
كيف سطحت ؟ »

فهذه رشة تجمع بين السماء والأرض والجبال والجمال ، في
مشهد واحد ، حدوده تلك الآفاق الوسيعة من الحياة والطبيعة ،
والملاحظ هنا هو « الضخامة » وما تلقى في الحس من استهوال ،
والأجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقي في السماء المرفوعة والأرض
البسطة ، والاتجاه الرأسي بينهما في الجبال المنصوبة ، والإبل
الصاعدة السنام . وهذه دقة تأخذها عين المصور الدقيقة في
الأشكال والأحجام .

ومما يلاحظ هنا بعين المصور كذلك أن لوحة طبيعية تشمل
السماء والأرض والجبال ، لا يبرز فيها من الأحياء إلا الجمال ، أو
ما هو في حجم الجمال ! والجل هو الحيوان المناسب ، لأنه أليف
الصحراء الفيحة التي تحدها السماء والجبال !

٢ - ومن هذا النحو - مع تغيير في مواضع اللغات :
« ولقد جعلنا في السماء بروجاً ، وزيناها للنظرين ، وحفظناها من
كل شيطان رجيم ، إلا من استترق السَّمْعَ فأتبعه شهاب
مبين . والأرض مددناها . وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من
كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ، ومن لستم له
برازقين . »

ففي السماء بروج ضخمة ، وشهب تنقض على الردة . وفي
الأرض المدودة رواسٍ راسخة ، ونبت « موزون » (لا « بهيج »
لطيف !) وفي الأرض كذلك « معايش » بهذا الجمع والتكثير ،
وفيها من لا يرزقه الناس بهذا التهويل والتكثير... وهذه مشاهد
ونخدها الضخامة الحسية والمعنوية .

٣ - وقد تبسع الرقعة ويتناول المدى وتعرض اللغات ،
ولكنها تدق في النهاية حتى تتناول الجزئيات :

مثال ذلك : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ،
ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى
نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير . »

اقرأ هذا الكتاب الذي تحتوى فصوله
على تطور القاهرة منذ نشأتها في أيام الفواطم
والأيوبيين والمماليك . .

القاهرة

والقاهرة
الحديثة

والأسرة
المالكة المكرمة

للكتابي
عبد الرحمن زكي
مدير المتحف المصري

كتاب يجب أن لا تخلو منه مكتبة أديب
يطلب من دار الكتب الأهلية بالأوبرا
ونحوه ٣٠ قرشاً
المراسلات باسم مؤسساها برشدي خليل